آليات التسلط اللغوي

جهاد عبد الرحمن(*)

"خطر اللغة على حرية الذهن، كل كلمة رأي مسبق!"

فريدريك نيتشه

ما وراء الخير والشر

تقديم:

مشاكل كثيرة تحدث في حياتنا اليومية بسبب اللغة، فتمارس سلطة أفراد على أفراد من خلال اللغة، تذوب ماهية داخل ماهية من خلال اللغة أيضًا.

فاللغة ليست مجرد ألفاظ ومفردات مسموعة و مقروءة بل هي الإطار التي تنتَج من خلاله الأفكارُ والتصورات، والإنسان لا يستطيع أن يعيش حياته إلا وفق تصوراته وأفكاره التي تنتجها اللغة. والذي يتحكم بتلك اللغة يتحكم بهذا الإنسان نفسه والمجتمع بأكمله. فاللغة هي إحدى الأيدي الخفية التي يتحكم بها القوي في الضعيف. فمن آليات التسلط اللغوي –وهو ما يكشف عن خطورته– أنه واسع الانتشار ومكين الغور بانتشار اللغة نفسها وغورها في النفس المتحدثة بها، وليس المقصود مجرد انتشار للألفاظ و المفردات فحسب، و إنما يصاحبها نسيج من المعاني التي تلتصق بها دومًا فلا تنفصل تلك المعاني عن

---

(1). طالبة بالفرقة الرابعة. قسم الفلسفة. آداب القاهرة.
Gehadabdelrahman@yahoo.com

الألفاظ حتى لو كانت خاطئة. في هاتين الفكرتين يظهر أن اللغة ولاؤها دومًا لمنتجها، وعند إنتاجها بمعاني معينة تظل ملتصقة ألفاظها بتلك المعاني، فيتحكم منتجها في المعنى.

فيما يلي إظهار من هو المتحكم باللغة، وكيف أنها أفضل وسيلة لنشر الأيديولوجيات المختلفة دون إظهار مرام تلك الأيديولوجيات. خاصة مع استخدام الألفاظ المنمقة التي يكون الهدف من ورائها هو تخدير العقل لكي لا يفكر فيها ويظل مقتنعًا بها، وذلك لأن القلق اللفظي هو المنبّه الأساسي لإعمال العقل.

أولًا: لمحة من حياتنا المعاصرة:

بالنسبة لواقعنا المعيش تشيع الآن بعض المفردات والتعبيرات التي تتقنّع خلفها الأيديولوجيات التي تريد فرض ذاتها، وهي تتخذ من شعور المواطن في العالم الثالث بالدونية والانهزامية والتأخر عن الغرب وتابعيه منفذًا للتسلل إلى عقله، وهي أيديولوجيا بقاء العارف عارفًا و الجاهل جاهلًا، بقاء السيد سيدًا و العبد عبدًا.

١-"الشرق الأوسط":

الشرق الأوسط و الشرق الأقصى و الشرق الأدني، الأوسط أوسط بالنسبة إلي من؟ والأقصى أقصى بالنسبة إلى من؟ والأدنى أدنى بالنسبة إلى من؟ بالطبع إلي أوربا. وهو ما يصوّر أوربا دائمًا في اللاوعي بشكل غير مباشر كمركز لكل الحضارات، حيث يقاس باقي العالم كأطراف بالنسبة لها. والمركز يعني

الثبات، والثابت في أي شيء هو الحقيقي والجوهري أما المتحول فهو زائف وعَرَضي، والمركز يعني المرجعية والمعيار فيقاس عليه غيره، والمرجعية والمعيار يتسمان بالصحة على المستوى العقلي والصدق على المستوى التجريبي. وغير المركز دائمًا على الهامش بلا قيمة. تلك هي سياسة الإشعار بالضعف والدونية، وعندما يرددها العربي فكأنما ارتضى تلك السياسة و شعر فعلًا بهذا الشعور، على أية حال يتبدّى هنا الانتقال من اللفظ إلى المفهوم إلى الشيء، من مصطلح الشرق الأوسط إلى معنى التمركز حول الغرب إلى التمركز الفعلي حوله بنتائجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية الناجمة عن التبعية الحضارية.

٢-"مطابق للمواصفات الأوربية":

تلك العبارة تُقرأ دائمًا على المنتجات مرتفعة السعر، وارتفاع السعر دليل على جودة الإنتاج، وعندما يقرؤها المشتري يشعر بالارتياح. لأنه ما تعنيه العبارة أن هذا المنتج خالٍ تمامًا من الخطإ.مع أنه يمكن للبائع لتسويق منتجاته أن يصك تلك العبارة على المنتج أيًا كان مستوى صناعته، و ذلك لأنه انطبع في أذهان الناس أن أوربا هي المتقدمة وهي العارفة، والعارف هو الذي يحدد المعيار.

٣- "لكي تكون مثقفًا تعلم الإنجليزية":

أيديولوجيا أخرى وهي أن الجاهل لكي يعرف لابد له من أن يتعلم لغة العارف، و من هنا يشغل العارفُ الجاهلَ بتعلم لغته ليكونَ تابعًا له في الثقافة والاعتقاد، ومن ثم لا يستطيع الإبداع إلا داخل تلك اللغة، فتنشأ مفارقة وهي أن

اللغة المتعلَّمة من الصعب الإبداع فيها لأنها ليست لغة الممارسة في الحياة اليومية. ومن هنا ينشأ نوع خاص من التبعية الفكرية.

ثانيًا: منطق التسلط اللغوي:

يمكن حصر أهم السياقات اللغوية التي تُمارَس السلطة من خلالها فيما يلي وبالإشارة إلى ما سبق رصده:

١-السلطة في التسمية:

يقول نيتشه " تسمية الشيء هي تملكه " فالعالم الذي يبتكر آلةً له الحق الوحيد في تسميتها ومن ثم هو المسيطر على مستخدميها. المتحكم بالمقولات السياسية والعلمية والاقتصادية هو المعيار في تلك القوى الثلاث. وأيضًا الذي يستطيع صياغة الأفكار والأيديولوجيات والعلاقات في قوالب لغوية، ويستطيع تفسيرها هو الوحيد الذي له الحق في أن يكون الأصل والمرجعية لها.

ذلك أن المتحكم في تسمية الأشياء والعلاقات هو الذي يتحكم في تكوينها الأيديولوجي في عقول متلقيها ومن ثم المتحكم بنسيج الأفكار، هو المتحكم بعلاقة الاسم بالمسمَّى بالأشياء ومن ثم بإدراك العلاقات بينها. مثال على ذلك قول فرويد باللاوعي الذي تُختزن فيه خبرات الطفولة وخاصة الخبرات المؤلمة منها باعتباره متحكمًا بسلوك الشخص، تلك النظرية أحدثت ثورة في علم النفس. أصبح الذي يريد تشخيص حالة ما يرجع إلى مفهوم اللاوعي كما أسماه فرويد خاصة من أصحاب التيار الفرويدي في التحليل النفسي.

٢- السلطة في السياق اللغوي-الثقافي:

وهو ما تمّ الحديث عنه من أن تعلم لغة أجنبية ما يضع المتعلم أو الباحث في سياقها، وقد يخرج من سياق لغته كليةً، والمعنيّ بالسياق اللغوي-الثقافي هنا: تلك المنظومة اللفظية التركيبية الدلالية الاستعمالية التي تتركب منها المعرفة أو يتم بها التعبير عن المحتوى المعرفي، ومن المعروف أن التشويه الداخل على لغة الضعيف من لغة القوي-كما في دول المغرب العربي مثلًا-قد يغير المعنى بشكل مؤقت أو دائم، وهو ما عُرف بظاهرة التشويه أو التداخل اللغوي Interference، وذلك بالنسبة لكل مستويات المنظومة السابق الإشارة إليها، ومن هنا تتسلل أفكار ومعتقدات وطرائق تفكير ذات هوية مختلفة أو طبيعة أخرى من المنتصر إلى النسق اللغوي الثقافي للمهزوم برغم تحرره من الاستعمار العسكري منذ عقود من الزمن.

٣-السلطة في السياق اللغوي-المنطقي:

قد يتأثر منطق التفكير ذاته بالمعنى الدقيق باللغة الأجنبية، وقد تكون تلك التأثيرات طفيفة غير أنها تؤثر بشكل ما على صياغة القضايا البسيطة، ففي القضايا الحملية[1] مثلًا يربط فعل الكينونة في اللغات الغربية بين الموضوع والمحمول (المبتدأ والخبر في النحو)، غير أنه يغيب في العربية وبعض اللغات

(1). القضية هي الجملة الخبرية التي تحمل خبرًا يمكن الحكم عليه إما بالصدق أو بالكذب، والقضية الحملية تتكون من موضوع ومحمول، والمحمول هو توضيح للموضوع. أنظر في ذلك: محمد مهران: "أسس التفكير المنطقي"، الدار المصرية السعودية، القاهرة/ ٢٠٠٦، صـ٦٣: ٦٦.

الأخرى بالنسبة للنوع نفسه من القضايا، ويتطلب شرح الأمثلة المنطقية دائمًا التعويض عن فعل الكينونة الغربي بفعل كينونة عربي (يكون) أو ضمير منفصل (هو) لتصبح العبارة مثلًا: سقراط هو إنسان، بدلًا من: سقراط إنسان، وهو ما يعبر عن تداخل لغوي-منطقي له تداعياته البلاغية.

٤-السلطة في السياق اللغوي-البلاغي:

إن ممارسة السلطة قد تظهر أيضًا في علاقة اللغة بالأنماط البلاغية الأدبية والتغيرات الحادثة عليها، فاختلاف لغة قصيدة النثر مثلًا عن لغة قصيدة التفعيلة أو العمود أو لغة النثر العادي يعبر عن تأثر بلغة الآخَر الحضاري من حيث التركيب والاستعمال، وقصيدة النثر شكل وافد، وهي ظاهرة واضحة لدرجة أن بعض النصوص النثرية المصنفة كقصائد نثر قد يشعر معها القارئ كما لو كانت نصوصًا مترجمة ! وذلك من حيث التركيب والاستعمال كما قلنا وليس من حيث التأثر بمعنى ما لمفكر أو أديب غربي.

٥- السلطة في السياق اللغوي-السيكولوجي:

حين يتعلم الفرد لغة أجنبية ما لفترة طويلة وبعمق كبير يقع سيكولوجيًا تحت تأثير أصحابها بشكل لا واعٍ، وذلك حين يشعر بالانتماء لها أكثر من لغته الأصلية، وقد يتطور هذا الشعور إلى شكل من أشكال الانتماء الوطني المعكوس والاعتزاز بمنتج الآخَر الحضاري في الفن والأدب والفلسفة والعلم!

٦- السلطة في السياق اللغوي-المجتمعي:

حينما يتم التشبع -شبه التام- لهذا الفرد بلغة أجنبية ما وكأنها لغته الأصلية، تأتي كتاباته مماثلة لهذه اللغة. ومن ثم يتم نشرها في مجتمعه، فيتأثر بها أبناء هذا المجتمع، خاصة إذا كان من كوادر المجتمع مثل: الصحفيين أو الإعلاميين أو حتى أساتذة الجامعة. فيصنع بذلك إطار للثقافة من خلال لغة غير لغة المجتمع الأصلية، فلا يشعر الأفراد -في البداية- بالاختلاف الجذري بين لغتهم ومن الثقافة القائمة في إطارها وبين الثقافة التي تصل لهم عن مشاهير المجتمع والتي بالفعل تتكون في لغة أخرى مغايرة، ولكن يشعروا في نهاية الأمر عندما يجدوا ثقافتهم وتفكيرهم مغاير تمامًا للغتهم الأصلية فيصبح الأفراد في ثقافة البين بين أو في حالة "اغتراب"[1] الاستيعاب الحضاري Assimilation.

ثالثًا: أطروحات لتجنب التبعية اللغوية:

١- الوعي بخطورة الأقنعة التي تتخفى وراءها السلطة من اللغة، والكشف عنها.

٢- اللغة دائمًا هي زمام السلطة بين القوي والضعيف، لذا لابد من تحليل كل الألفاظ التي تردد على مسامعنا من حيث الأصل الفكري والبنية الذهنية

(1). مصطلح الاغتراب يعني طريقة عصرية للوجود على نحو تبتلع معه شخصية الفرد وتضييع، أما الاغتراب في عمومه يعني الانفصال عن الأصل، سواء كان الأصل هذا هو المجتمع أو النفس أو الله". محمود رجب: "الاغتراب"، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨، صـ٤٦:٤٥

والحضارية والأيديولوجية المنتجة لها، وليس من حيث مجرد الأصل اللغوي الاشتقاقي.

٣- لا يعني القول بعدم اتباع الغرب في ألفاظهم أن نتخلى تمامًا عن لغة العلم ولكنْ التخلي عن سلطة منتجها. وذلك بمحاولة الإبداع والإضافة لهذه اللغة العلمية بالمساهمة في الإبداع العلمي ذاته.

٤- إعادة تعريف مفهوم الإبداع الأدبي بحيث يصير إبداعًا لغويًا أصيلًا يشتبك مع التراث البلاغي اللغوي القديم في اللغة نفسها لا مجردَ جديد، لأن الجديد قد يكون هو الأجنبي دون إضافات.